

الفصل الأول

التعليم بوابة التقدم

# الفصل الأول

## التعليم بوابة التقدم

لم يعد القرن الحادى والعشرون تاريخا بعيد المنال ، فنحن بالفعل على مشارف القرن الجديد أو الألفية الثالثة من تاريخ البشرية . ولعل ما يجب أن يشغل بالنا اليوم فى عالمنا العربى الذى فقد الصدارة ، ويكاد أن يفقد الكيان والإرادة ، بدلا من حساب الشهور والأيام المتبقية على حلول القرن المرتقب هو أن نعيد حساباتنا حول الخطط والإمكانات التى أعدناها لاقتحام الألفية الثالثة من موقع المتقدمين .

ومصر مهد الحضارات ، تتحفز الآن لنهضة شاملة فى جميع المجالات ، تزيكها روح الانتماء ، ومشاعر الاعتداد بالماضى ، والثقة فى المستقبل ، كما تستعد للدخول فى القرن الحادى والعشرين ، من بوابة المتفوقين . فلا يعقل أن تكون أول دولة فى التاريخ - وهى رائدة الفكر والفن والعلم والحضارة - فى عداد المتخلفين عن ركب الحضارة والتقدم ، واستيعاب مفاهيم العصر وأنماطه الجديدة ، فى عالم يشهد اليوم ثورة تكنولوجية هائلة ، فى المعلومات والإلكترونيات والحاسبات والاتصالات ، تزيد بها ومعها الفجوة بين الدول المتقدمة والدول النامية اتساعا وعمقا . فقد أصبح من يملك ناصية العلم والتكنولوجيا والمعلومات هو من له حق البقاء ، الأمر الذى يحتم علينا ، أن نسابق الزمن ، ونضاعف الجهد ، حتى تدخل مصر القرن الجديد فى زمرة من لهم فرصة البقاء بين الأقوياء ، وحق

الانتساب لهذه الصفوة ، خاصة وأن العالم المتقدم لن ينتظرنا حتى نلحق به ، ولن يمد يده إلينا طواعية واختيارًا ، لتزداد الصفوة واحدا بنا . إن علينا انتزاع حق الانتساب ، والانخراط في العالم المتقدم ، بالجهد ، والعزيمة والإصرار ، واستيعاب آليات التقدم ، وإحداث نقلة نوعية للحياة على أرض مصر ، وهذا لن يتأتى إلا من خلال التعليم المتميز .

إن أهمية التعليم مسألة لم تعد اليوم محل جدل في أى منطقة من العالم ، فالتجارب الدولية المعاصرة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن بداية التقدم الحقيقية بل والوحيدة هي التعليم ، وأن كل الدول التى تقدمت - بما فيها النور الآسيوية - تقدمت من بوابة التعليم ، بل إن الدول المتقدمة نفسها تضع التعليم فى أولوية برامجها وسياستها .

ومما لا شك فيه - أيضا - أن جوهر الصراع العالمى هو سباق فى تطوير التعليم ، وأن حقيقة التنافس الذى يجرى فى العالم هو تنافس تعليمى . وأنا شخصيا من المؤمنين بهذه المقولة التى قالها الرئيس محمد حسنى مبارك فى صيف عام ١٩٩٣ م ، كما أننى من المؤمنين بأهمية التعليم كضمان لدخول مصر القرن الحادى والعشرين ، واحتلال مكانة تليق باسمها .

إن التعليم يتحمل مسئولية هائلة فى تحقيق التنمية التى نرجوها ، التنمية الشاملة ، التنمية بمعناها الواسع التى تشمل كل نواحي الحياة ، التنمية البشرية بكل ما تحويه من اكتشاف ، ورعاية ، وتدعيم ، وتعظيم ، للقوى البشرية ، وللخبرات والقدرات التى يمتلكها الإنسان ، وتوجيهها بما يخدم هذا الإنسان نفسه ، وفى إطار المجتمع الذى يعيش فيه ، كما تشمل التنمية كذلك ، التنمية الاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وكل ما يدعم نواحي

أنشطة الحياة المادية والبشرية كافة . وإذا نظرنا إلى التجارب الإنسانية الناجحة التي تمت فى العقود الماضية ، والتي حققت تقدما ملموسا ومحسوبا فى كافة هذه المجالات شرقا وغربا ، نجدها تمت بلا استثناء من بوابة التعليم .

فالصراع فى العالم اليوم هو سباق فى التعليم ، وإن أخذ هذا الصراع أشكالا سياسية أو اقتصادية أو عسكرية . فالجوهر هو صراع تعليمى ؛ لأن الدول تتقدم فى النهاية عن طريق التعليم ، وكل الدول التي تقدمت وأحدثت طفرات هائلة فى النمو الاقتصادى والقوى العسكرية أو السياسية نجحت فى هذا التقدم من باب التعليم .

هذا الموضوع نجده أمامنا فى مقولات شهيرة ، وفى تجارب محددة ، أتذكر منها قول المؤرخ العالمى المشهور « أرنولد توينبى » : « إن تاريخ المجتمعات البشرية هو تاريخ المنافسة بين التعليم والكارثة » ، ونفس المقولة لأستاذ أمريكى كبير « بول كينيدى » فى كتاب حديث له بعنوان « الاستعداد للقرن الحادى والعشرين » ، حيث خلص فيه إلى أن التعليم هو الوسيلة الوحيدة لمقابلة تحديات القرن الحادى والعشرين .

وإذا نظرنا إلى الدول الكبرى التي تتصارع على القمة اليوم ، نجدها تطور من نظم تعليمها ، وتحاول أن تدرس نظم التعليم الأخرى الموجودة فى الدول المنافسة ، وتوجه معظم جهودها لتطوير التعليم . واليابان خير مثال على ذلك ، فبعد ضربها بالقنابل الذرية ، وخساراتها الفادحة فى الحرب العالمية الثانية ، قامت بتوجيه كل اهتمامها للتعليم ، وخصصت ثلثي استثماراتها له ، واستطاعت أن تحقق معجزة اقتصادية بلغت ذروتها فى الثمانينات ، أى أنها فى حوالى (٤٠) أربعين سنة أصبحت العملاق

الاقتصادى المبره فى العالم .

وها هى سنغافورة ، البلد الصغير ، تؤكد تجربتها أهمية التعليم فى التنمية ، والذى عن طريقه استطاع دخلها القومى أن يتعدى (٢٠) عشرين ألف دولار للفرد فى السنوات الأخيرة .

وتشهد على هذا - أيضا - تايوان ، وكوريا الجنوبية ، وتجربتهما الرائدة فى النهوض بالتعليم ، وبالتالى التنمية الشاملة فيهما . حيث كانت كوريا الجنوبية فى بداية الستينات فى ظروف أكثر سوءاً من ظروف مصر ، وكانت نسبة التعليم العالى فيها لا تزيد على ٦٪ ، ومع هذا فقد شهدت فيها التسعينات نموا اقتصاديا قدره ٨,٥٪ لسنوات متتالية ، فى الوقت نفسه ارتفعت نسبة التعليم العالى فيها إلى ٣٩٪ . ولقد تكررت هذه التجربة فى دول عديدة ، وفى ظروف مختلفة .

وبالنظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على الطرف الآخر ، فإننا نجد أنه عندما أطلق الاتحاد السوفيتى السابق أول قمر صناعى عام ١٩٥٧م ، قامت الدنيا ولم تقعد فى أمريكا من أجل اللحاق بالاتحاد السوفيتى ، ولم تذهب أمريكا إلى مصانع الصواريخ ، ولا إلى الصناعات الحربية ، بل شرعت تدرّس منهج الرياضيات والعلوم للتعليم الأساسى فى روسيا ، وكان التطوير فى هذه المناهج هو المدخل الذى مهد لانتصار أمريكا المذهل فى هذا السباق .

وفى عام ١٩٨٣م ، أحس الرئيس الأمريكى السابق « ريجان » أن الين اليابانى استطاع السيطرة على السوق العالمية ، فقامت قيامة أمريكا ، وأصدرت تقريرها الشهير أمة فى خطر ، واهتموا مرة أخرى بالتعليم الأساسى وبصفة خاصة الرياضيات والعلوم .

ثم تابع الرئيس السابق « بوش » اهتمامه بالتعليم ، وكان برنامج أمة تتعلم ليوضح أهمية التعليم لأمريكا ، حتى يواصل الأمريكيون التفوق في جميع المجالات . كذلك ، فقد اعتمد الرئيس « كلينتون » في برنامجه الانتخابي على نقد سياسة من سبقوه في التعليم ، وفي خطاب له استغرق (٦٠) ستين دقيقة ، كان تأكيده في الجزء الأكبر منه على التعليم ، مشيراً إلى أنه سيقود حملة مقدسة لتطوير التعليم ، وأن التعليم سوف يحتل المكانة الأولى في برنامج حكومته ، كما أكد على أن التعليم يشكل بعداً أساسياً لأمن أمريكا القومي .

وفي إنجلترا ، فإن « توني بليز » رئيس حزب العمال في بريطانيا - والذي حقق نجاحاً ساحقاً في الانتخابات الأخيرة ، وقام بتشكيل الحكومة البريطانية الجديدة - ظل طوال حملته الانتخابية وفي مؤتمرات الحزب يردد : تسألونني عن الأولوية في برنامج الحكومة ، إنه التعليم ، التعليم ، التعليم . ونحن - إلى عهد قريب - كنا نرى أن التعليم الأساسي هو مرحلة التعليم الابتدائي ، ثم امتد ليشمل التعليم في المرحلة الإعدادية . وجاء وقت كان يقابل بالتقدير مجرد الحصول على الشهادة الابتدائية ، ثم أصبحت الكفاءة بعد ذلك ، ثم حلت محلها التوجيهية ، ثم بعد هذا الجامعة . والآن أصبح رؤساء كثير من الدول يعلنون - صراحة - أن التعليم الأساسي فيها هو التعليم الجامعي ، وآخرهم كان الرئيس الأمريكي « كلينتون » الذي قال : إن برنامج الحكومة هو « تعليم عال للجميع » ، فكل شاب وفتاة يبلغان الثامنة عشرة من عمرهم في الولايات المتحدة لابد أن تتاح لهم فرصة دخول الجامعة .

وفي حديث للتلفزيون الإسرائيلي ، أشار د شيمون بيريز ، إلى أنهم يكرسون الدولة اليهودية ، وأن دولا قرية منهم تكرس الدولة الإسلامية ، وقال د فإذا كانت الدول التي تكرس الدين الإسلامي في هذه المنطقة تملك الثروات الطبيعية والبتروولية ، فإننا نستطيع أن نحسم الصراع لصالح إسرائيل عن طريق التعليم ، وعن طريق الثروة البشرية التي نملكها ، وإتاحة التعليم الجامعي لكل فتى وفتاة في إسرائيل ، . ياترى هل توقظ هذه المقولة أمتنا العربية من المحيط إلى الخليج من غفوتها التي طالت ، ومن فرقها التي هانت ، وتجمع كلمتها على كلمة حق وصحوة استارة ؟

ونجد أن المفكرين عندما يتحدثون عن تقويم قدرات الدول المختلفة يضعون في اعتبارهم نسبة ومستويات التعليم ، ففي إنجلترا تبلغ نسبة الحاصلين على شهادة جامعية من شاغلي مناصب الإدارة العليا ٢٤٪ فقط ، مقارنة بـ ٦٢٪ في ألمانيا ، و٨٥٪ في كل من أمريكا واليابان .

والإحصاءات تثبت أن أمريكا واليابان لديهما أعلى معدلات من العلماء والمهندسين ، فمن بين كل مليون مواطن يوجد في اليابان (٣٥٠٠) عالم ، وفي أمريكا (٢٥٠٠) عالم ، وفي أوروبا (١٥٠٠) عالم ، كما يوجد في كل من أمريكا اللاتينية وبعض الدول العربية (٢٥٠) عالم ، وبعض الدول الإفريقية (٥٠) علما .

وعندما نرصد الإحصاءات - أيضا - على مستوى العالم ، نجد أن التعليم الجامعي وصل إلى ٦٤٪ من الشريحة العمرية في أمريكا ، و٦٣٪ في كندا ، و٦٢٪ في فنلندا ، وأكثر من ٥٠٪ في اليابان ، ومن ٣٠٪

- ٤٠٪ كحد أدنى فى معظم دول أوروبا ، وفى إسرائيل ٣٥٥٪ ،  
وفى مصر مازالت النسبة ١٩٪ . واليوم - فى هذا الصراع الرهيب -  
لابد أن تكون الجامعة هى القوة الأساسية التى تحدث التقدم .

وإذا كان التعليم الأساسى الركيزة الأساسية فى بناء وتكوين وتشكيل  
مكونات الإنسان العقلية والوجدانية ، وتأهيله للتعامل مع العلم والمعرفة ،  
واستيعاب آليات التقدم ، وتفهم لغة العصر ، فإن مواكبة عصر التكنولوجيا  
فائقة القدرة ، والمعلوماتية المتسارعة الخطى ، تفرض بل وتحتم ألا يكون  
التعليم الجامعى والعالى مقصورا على الصفوة فقط ، كما كان من قبل . ففى  
الوقت الذى كان فيه اكتشافات تكنولوجيا جديدة يشكل الميزة التنافسية لأية  
دولة ، كان يمكن قصر التعليم العالى والمتميز على نسبة ١٥٪ - ٢٠٪ من الشباب  
فقط . أما الآن ، فإنه من المحتتم أن يشمل القاعدة العريضة المنخرطة فى التعليم ،  
وذلك ؛ لأن الميزة الحدية للإنتاج أصبحت تتمثل فى اكتشاف أساليب  
تكنولوجية جديدة لتطبيق اكتشافات قائمة ، واكتشاف أساليب حديثة متطورة  
لما سبق اكتشافه من قبل . ومن هنا ، فإنه من الضرورى أن يشمل التعليم العالى  
والمتميز القاعدة العريضة العاملة فى خطوط الإنتاج ، والتى تتحمل مسؤولية  
تطبيق خبراتها وقدراتها المتميزة فى عملية الإنتاج نفسها . وهذا لن يتحقق إلا  
إذا كانت هذه القاعدة العريضة (أى حوالى ٥٠٪ - ٦٠٪ من الشباب) قد  
تأهلت لذلك بحصولها على المؤهل الجامعى أو العالى ؛ لأننا فى مواجهة موقف  
سيصبح فيه التعليم الجامعى هو التعليم الأساسى .

وإذا ما نظرنا إلى اليابان ، نجد أنها تتصف وفقا لكل المعدلات العالمية  
بنظام تعليمى ممتاز ، ومع ذلك ، فقد بدأت فى السنين الأخيرة تراجع

نفسها ، وبدأت تحدث تغييراً حقيقياً فى سياسة التعليم ؛ لأن اليابانيين فطرتنا إلى أنهم قد استطاعوا نقل التكنولوجيا الحديثة وتقليدها ، وأنهم فى حاجة ملحة - الآن - إلى الابتكار والمبادأة ، وهناك جدل ونقاش واسع فى اليابان حول تغيير السياسة التعليمية .

فهل يمكن أن نتجاهل هنا فى مصر هذه الحركة العالمية فى التطوير ونحن نواجه أزمة حقيقية فى التعليم ، عبر عنها الرئيس محمد حسنى مبارك بصدق سنة ١٩٩١م ، حينما قال : إن أزمة التعليم قد مست المدرسة والمعلم والمنهج والطالب ، وأنه برغم كل الجهود المخلصة التى بذلت ، فإن الحصيصة النهائية مازالت قاصرة عن تحقيق آمال هذا الشعب .

فهل يمكن - فى ظل نظام عالمى جديد له قواعده الصارمة - أن نقف بمعزل عن الآخرين ؟ وهل يمكن - فى ظل سقوط الحواجز والسدود - أن نعزل أنفسنا ، وألا نقبل التغييرات التى حدثت فى مواجهة رياح الديمقراطية ، وحرية الإنسان ، وأن نغمض أعيننا عن هذه التغييرات الجوهرية التى أسقطت إمبراطوريات ومحت مذاهب ، وأحدثت ثورة نشاهدها اليوم فى كل مكان من العالم ؟ وكيف يمكن أن نحقق المواجهة ؟ أو كيف يمكن أن نوفق بين المتناقضات التى تحدث من حولنا ، كرياض الديمقراطية ، وحرية الفكر ، وحرية الإنسان ، ودعاوى التطرف والإرهاب الفكرى ؟ كيف يمكن أن نوفق بين النظام الإنتاجى العالمى الجديد ، وهو إنتاج كثيف المعرفة ، شديد السرعة ، إنتاج يصمم لمجابهة أو تلبية احتياجات طائفة محددة من المستهلكين الذين تتغير أذواقهم واحتياجاتهم من فترة لأخرى ، وتلقى على خطوط الإنتاج عبثاً هائلاً ، حيث يتحتم عليها المرونة ،

والتطوير السريع ، والتكيف ، لملاحقة الأذواق أو الطلبات المتغيرة ، فى سرعة شديدة ، ودون توقف ، وذلك يتوقف - أيضا - على تدفق المعلومات اللازمة إلى خطوط الإنتاج من الأسواق والمستهلكين مباشرة . أقول : كيف يمكن أن نوفق بين هذا النظام الإنتاجى العالمى الجديد الذى يعتمد على اقتصاديات السوق وآلياته ، وبين نظام تعليمى تقليدى عانى كثيرا من نقص الاعتمادات ومحاولات الاختراق ودعاوى الجمود ؟ كيف يمكن أن نوفق بين كل هذه المتناقضات ؟ كيف يمكن أن نرتفع إلى مستوى المسؤوليات ، وأن نواجه هذه التحديات ؟

إن العالم كله يتجه اليوم إلى عصر الكيانات الكبيرة ، حيث تتكامل الإمكانيات بين دول مجتمعة ، كالسوق الأوروبية المشتركة ، ودول شرق آسيا .

ونحن فى عالمنا العربى بما يملكه من ثروات ضخمة وإمكانيات هائلة ، ومقومات طبيعية لتشكيل وحدة عربية - يجب أن نهى لتواجد مؤثر وقوى فى عالم اليوم . فلعلة قد آن الأوان لتحويل موارد وثروات العالم العربى من ثروات متآكلة مع الزمن فى الخزائن أو أقبية البنوك ، أو ودائع تضيع مع ريان جديد أو سوق مناخ مستحدث - وذلك فضلا عن تعرضها للنضوب من عام إلى آخر بحكم طبيعتها ومكوناتها الطبيعية كموارد أولية كالبتترول والمواد الخام - إلى العملة الجديدة النادرة القابلة للاستثمار المتجدد ، عملة القرن الحادى والعشرين ، المتمثلة فى العلم والمعلومات ، والتى تمثل الرصيد الحقيقى القومى فى القرن القادم . إن هذا الاستثمار يتجه إلى العلم والمعرفة ، حيث تسود التكنولوجيا فائقة الصغر ، والمواد الجديدة ، والطاقة المتجددة ، وطاقة الفضاء ، بديلا عن الثروة التقليدية ومصادر الطاقة الملوثة للبيئة كالبتترول

والزراعة ، والإنتاج الحيوانى ، وحيث تفتتح آفاق جديدة هائلة لنوعيات من الإنتاج ، تتغلب على ماعداها كما ونوعا . ويكفى أن أشير إلى أن ما يحتويه ستيمتر واحد فى الفضاء من الطاقة يزيد بأضعاف مضاعفة على أى مادة أخرى ، وذلك فضلا عن أنها طاقة غير ملوثة للبيئة ، هذا التلوث البيئى الذى تتفاقم عواقبه الوخيمة يوما بعد يوم على مستوى العالم كله شرقه وغربه .

إن ثورة المعلومات ، والتكنولوجيا فى العالم ، تفرض علينا أن نتحرك بسرعة وفاعلية ، لنلحق بركب هذه الثورة ؛ لأن من يفقد فى هذا السباق العلمى والمعلوماتى مكانته ، لن يفقد فحسب صدارته ، ولكنه سيفقد قبل ذلك إرادته ، وهذا احتمال لا نطقه ، ولا يصح أن نتعرض له .